

ملحمة الفلاح المصرى

أ.د. حامد طاهر

فى أعمق أعماق الغابات

وقبل مجيء التاريخ بألذ المسنونات

كان يسير بلا هدف

إلى من شربة ماء

أو حبة فاكهة

أو بعض الحشرات

وأخيرا وجد النيل

يسير مهيبا في خطوات متتدات

تتقاذف فية عشرات الأسماك المضييات

وعلي جنبه نخيل يعلو ،

ويطاول هامات المسحب المبيضاء

ألقي بالمجسد المنهوك علي طين الأرض السمراء

وصارت جنته العذراء !

في اليوم التالي حمل الفأس الفولاذية

وهوي نحو الأرض يقبلها ، ويقلبها ..

فتبادله أطيب ما فيها من خيرات

أطنان القمح، وأجولة الفول ،

وأصناف المخضراوات

ويدخل منزله

راح يربي بعض البقرات

بقرات كانت تمنحه اللبن المصافى ،

والمجلباب الدافئ ، والدهنيات ..

كان الفلاح المصري بسيطا

يزرع ، يحصد ، ويزوج

في خاتمة الموسم أولاده

ويبارك في أروقة المعبد أحفاده

محتملا أغلى ما يملك للكهنة من قريان

ملتزما بالسجدة للفرعون

إذا ما مر بموكبه العائم

بين الشيطان!

ظل الفلاح المصري صموتا

لا يتكلم حتى حين تؤرقه الكلمات

وخلوقا يسعى في دعم الضعفاء

ويجلس بجوار النيل يصلي ..

في زمن القحط ،

وحين يفيض الفيضان

وإذا أوقف في محكمة الموتى

أقسم أن يديه ما لوثتا النيل ،

ولما ألقى فيه أعواد المشوفان !

كان الفلاح المصرى خبيراً

بخبايا الأرض السمراء

يعرف كيف تجود ؟

ومتي تلفحها الشمس الغضبي ،

فتشققها ؟

وبأي مدار يفرشها البدر إذا اكتمل

بضوء مملوء بالأزهار

لكن الفلاح المصرى تفاجأ يوماً

من أيام المصيف المحارقة .. بجيش جرار

هاجم من ناحية المشرق

وشتت حاميه الجند .. بلا إنذار

وتوصل للفرعون الأعلي ،

أسقطه من أقوي برج فوق الأسوار

سقط الفرعون جذاذات ، وأساور فضيات ، ونضار !

وتبددت المعتقدات المحفورة

في أعمدة المعبد ، والمأ حجار ..

لكن الكهنة نفضوا في المبخرة الكبرى ،

واعتبروا الغازي ملكا ، وألها ، وسليل الأقدار !

رجع الفلاح المصري إلى منزله المطيني ،

وراح يحدق في أطفال من غير عشاء

ورأى نظرة زوجته ترمقه باستجداء

لم يعرف طعم النوم ، طول الليل ،

وحين تبدي الفجر ، مشي نحو الأرض السمراء

يقاسمها الشكوي والاهياء

ويوفر ما تنتجه للغرباء

حتى المسنبلة الصفراء !

فإذا جن الليل

سرى فوق المشط

وأخرج من أعماق الروح

مواويل الصبر الصماء!
